

عمر إحرشان | Omar Iharchane*

حراك الريف: السياق والتفاعل والخصائص

The Moroccan Rif Uprising: Context and Characteristics

تبحث هذه الدراسة في الدينامية الاحتجاجية لمغرب ما بعد "الربيع العربي"، وترصد "حراك الريف" من حيث سياقاته المحلية والوطنية والإقليمية، وأسبابه التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتفاعل مختلف مكونات المشهد السياسي المغربي، سواء السلطات السياسية أو الأمنية أو الحزبية أو المجتمع المدني. وتستخلص الدراسة النقائص السياسية والدستورية والقانونية التي تجعل الاحتجاج في الشارع هو الخيار المفضل للمتضررين من الأثر السلبي للسياسات العمومية المتبعة. وانطلاقاً من حراك الريف، ترصد هذه الدراسة خصائصه وأهدافه وتداعياته وأشكاله النضالية والتنظيمية والخطابية والتعبوية؛ إذ إن الحراك، على الرغم مما تعرّض له من تجاوزات من طرف المؤسسات الرسمية، فإنه حافظ على سلميته وطابعه الشبابي وشعبيته واستمراريته وتمدده الجغرافي وتجدد أساليبه وقوة تواصله وتنوع أشكاله النضالية والتنظيمية، والحفاظ على مسافة تباعد مع الأحزاب الرسمية، والمزاوجة بين الراديكالية والمرونة، وبين طابعه المحلي وإشعاعه الوطني والدولي. وهي خصائص توضح أننا بصدد تطور نوعي في السلوك الاحتجاجي وأمام جيل جديد من الحركات الاحتجاجية يستفيد من تراكم الحركات السابقة ويضيف إليها سمات جديدة.

كلمات مفتاحية: الربيع العربي، حراك الريف، المغرب.

This study explores protest dynamics in Morocco following the "Arab Spring", examining the Rif uprisings within their local, national, and regional context, and assessing the various socio-political, economic, historical, and cultural drivers behind the protests. The research draws on the political, constitutional and legal shortcomings that render street protest the preferred political action against the negative impact of public policies. Despite government violations, these protests have remained peaceful, maintained a youthful character and popularity. These movements have continued to expand, innovate, and communicate, while maintaining diversity in organization and expression. The combination of radicalism and flexibility, and the fusion of its local character with its national and international dimensions. All of these characteristics indicate the developments in protest behaviour, with a new generation adding new experiences.

Keywords: The Arab Spring, the Rif Uprising, Morocco.

* أستاذ القانون العام والعلوم السياسية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

* Professor of Puplic Law and Political Science, Cadi Ayyad University, Marrakesh, Morocco.

مقدمة

العمومية غير المنصفة لفئات عريضة من الشعب، وعن عدم الشعور بأن المؤسسات المدبرة تحقق معيار التمثيلية الشعبية لتكون المعبر عن مطالب الشعب. ولذلك، ترى فئات اجتماعية عريضة ألا طريق أمامها إلا الاحتجاج للتعبير عن عدم الرضى، وطرح الاقتراحات والبدائل.

تسعى هذه الدراسة - في محاولتها رصد التحولات في ثقافة الاحتجاج في المغرب - لتدارس هذا الحراك من حيث: سياقه، ودواعيه وأسبابه، وخصائصه، وأهدافه، وتداعياته، وأشكاله النضالية والتنظيمية والخطابية والتعبوية، وآفاقه، والتفاعل معه من مختلف مكونات المشهد السياسي المغربي، وكيفية احتضان المجتمع له، وطريقة تعامل السلطات معه.

أولاً: سياقات حراك الريف

لا يمكن فهم طبيعة حراك الريف، وأبعاده وتداعياته، من دون التطرق إلى سياقاته الخاصة والعامة، وكذا سياقاته المحلية والوطنية والإقليمية.

1. السياق المحلي لحراك الريف

تزخر منطقة الريف بثروات طبيعية وإمكانات هائلة، لم تستفد منها لتحقيق تنمية متوازنة تستعين بها الساكنة على تحسين ظروف عيشها. وتأثرت المنطقة تأثراً سلبياً نتيجة عقود من التهميش والعزلة والإقصاء، ولذلك فقد كانت كل المؤشرات تفيد بأنها مؤهلة لمواجهة احتجاجات عامة تفوق في حدتها تلك الاحتجاجات التي عرفتها المنطقة في ظل "حركة 20 فبراير" 2011.

ولأنها منطقة تنتمي إلى الهامش، جغرافياً وتنموياً، فهي تشبه إلى حد بعيد الخصيصة التي لازمت مناطق انطلاق الاحتجاجات في الربيع العربي⁽³⁾ عام 2011، ويمكن هنا التذكير باحتجاجات قادتها منطقة تارواق⁽⁴⁾، استمرت شهوراً قبل موت محسن فكري، بسبب تفويت أراضي الآلاف من المزارعين للأملاك المخزنية من قبل تعاونية وهمية غير منتجة. وهي احتجاجات تُوّجت بمسيرة على الأقدام لأكثر من 5000 نسمة من قبيلة بني سدات في اتجاه مدينة الحسيمة التي تبعد 120 كيلومتراً، بعد الإخفاق في التوصل إلى حل واقعي يضمن لهم استرجاع "حقوقهم المغتصبة" ووضع حدٍ لمعاناتهم واعتصاماتهم اليومية التي تجاوزت ثلاثة أشهر. ولذلك، كانت منطقة الريف مرشحة لتشهد احتجاجات كبيرة وعامة، لأن مجالها الترابي متجانس،

3 مثل سيدي بوزيد في تونس، ودرعا في سورية.

4 لم تنل هذه الاحتجاجات حظها من الاهتمام، مقارنةً باحتجاجات مماثلة، على الرغم من طول مدتها، وطبيعة مطالب ساكنتها، وحجم الأساليب النضالية التي اعتمدها للدفاع عن مطالبهم ضد من يصفونهم بـ "لوبيات الفساد" و"مافيات العقار". وللإشارة، فحزب الاستقلال أثار الموضوع في جلسة الأسئلة الشفوية من طرف النائب نور الدين مضيان.

شهدت منطقة الريف في شمال المغرب، منذ أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 2016، حركة احتجاجات أطلقها موث/ قتل المواطن محسن فكري⁽¹⁾. وقد انطلقت الاحتجاجات من مدينة الحسيمة، مركز الريف، لتنتقل وتشمل مناطق أخرى خارجها (من قبيل إقليم الناظور)، صارت مع مرور الوقت جزءاً من هذه الحركة التي توسعت لتستقطب فئات شعبية متنوعة في المنطقة أيضاً، وهو ما أضفى عليها صبغة الحراك الشعبي، واستطاعت كسب تعاطف باقي المناطق وتضامنها داخل المغرب وخارجه.

استمرت الاحتجاجات وصدت، وتصاعدت وتيرتها، على الرغم من المبادرات الكثيرة لإيقافها، سواء من خلال مبادرات الحكومة أو الجهة الترابية أو بعض "الوسطاء"⁽²⁾، وكذا من خلال تعزيزات أمنية كثيفة، وتدخلات عنيفة، ونصب الحواجز للحيلولة دون مشاركة المواطنين، وعلى الرغم من حملات الاعتقال والمحاكمات والحملات الإعلامية لتشويه هذه الاحتجاجات.

عمّت حركة الاحتجاجات، إذًا، جُلّ الريف، فشملت كلاً من إمزورن، وتروكوت، وبوكيدارن، وآيت بوعياش، وأجدير، وآيت قمر، وآيت عبد الله، وآيت حذيفة، وترجيست، وتلارواق، وبني بوفراج، وبني جميل، وآيت يطف، وآيت عمارت، والرواضي، وتمسمان، وسواها، لتشكل ما عُرف باسم "حراك الريف"، وهو الحراك الذي يستحق وقفة تأمل ورصد لكثيرٍ من مميزاته، بما لها وما عليها، لفهم حقيقة التحولات المجتمعية، وطبيعة الثقافة التي تتشكل في المجتمع المغربي وتشكل الوعي الجمعي لكل مكوناته، وحقيقة النظرة إلى المؤسسات والوسائط الموجودة، والدور الذي تقوم به الحركات الاجتماعية في المغرب.

ومن ثم، لا يمكن فصل دينامية الريف عن غيرها من الديناميات الاحتجاجية التي يعيشها المغرب تعبيراً عن عدم الرضى عن السياسات

1 محسن فكري شابٌ مغربي من مواليد إمزورن عام 1985، كان يعمل بائعاً للأسمك. انقطع عن الدراسة في السنة الأولى من التعليم الثانوي، ليلتحق بمعهد تكنولوجيا الصيد البحري ويحصل على دبلوم بحار. وفي 28 تشرين الأول/ أكتوبر 2016، صادرت السلطات المحلية داخل ميناء الحسيمة سلعته، بمرر أن هذا السمك ممنوع صيده. وبعد المصادرة، قامت السلطات برمي السمك في شاحنة القمامة. وفي خطوة احتجاجية، صعد محسن وزملاؤه إلى شاحنة القمامة لمنع إتلاف السلعة. ولكن ممثل السلطة أعطى تعليمات بتشغيل آلة الطحن، فتمكّن أصدقاء محسن من القفز والنجاة، بينما عجز هو عن ذلك، لأنه كان ممدداً داخل الآلة التي سحقته بسرعة كبيرة. وقد أكد شهود عيان علم ممثل السلطة بوجوده في الشاحنة، فقال "طحن مو". ولذلك، استعملت هذه العبارة على نطاق واسع في الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، وأُخذت "هاشتاغاً" لتوضيح عدم الرضى، والمطالبة بحاسبة المسؤول عن هذا الاستخفاف بحياة مواطن كان يمكن، لتحقيق سيادة القانون، سلوك مسالك أخرى غير قتله.

2 تعددت مبادرات الوساطة، سواء من طرف المجلس الوطني لحقوق الإنسان، أو شخصيات حقوقية أو سياسية أو ثقافية، أو محامين أو فاعلين من المجتمع المدني، وجُلّها رفضه ناشطو الحراك، على نحو يؤكد غياب الثقة لديهم بكل هذه الوسائط. وهناك مبادرات استجاب لها الناشطون، ولكنها لم تلق تجاوباً وقيولاً لدى السلطات.

3. السياق الإقليمي والدولي لحراك الريف

على الرغم من الطابع المحلي لحراك الريف، فإنه لا يمكن فصل هذا الحراك عن سياقاته الإقليمية والدولية؛ فقد تميز باكتسابه بعداً دولياً لأسباب عدة، سنفصلها لاحقاً.

على عكس الحراك الشعبي لعام 2011، يمكن القول إن السياق الإقليمي كان في غير مصلحة حراك الريف؛ فقد عرفت المنطقة العربية ثوراتٍ مضادةً، وحالة تراجع ونكوص عن مكتسبات الربيع العربي، ونشوء حلف رسمي عربي همُّه الأساس وأد كل الانتفاضات الشعبية في مهدها.

ولم يختلف السياق الدولي عن مثيله الإقليمي كثيراً؛ فالولايات المتحدة الأمريكية ظلت بمنأى عن الحراك، وإسبانيا بقيت على الحياد رسمياً، وفرنسا داعمة للموقف الرسمي المغربي في تعامله مع الحراك، والاتحاد الأوروبي، وخصوصاً المفوضية الأوروبية التي تُعد الذراع التنفيذية للاتحاد، غلَّب مصالحه الإستراتيجية مع النظام المغربي على الاصطفاف المنطقي الذي يتطلبه الأساس الذي بُني عليه هذا الاتحاد. ولم يساند الحراك في هذا السياق سوى هيئات حقوقية وسياسية، ومجتمع مدني حي، ومغاربة منتشرين في العالم في دول مثل ألمانيا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا وفرنسا.

ولكن يُحسب لحراك الريف أنه غيَّر كثيراً في معادلة ميزان القوى، بصموده، واستمراره، وسلميته، وعدالة مطالبه، ليفرض نفسه في جداول أعمال كثير من هذه الدول⁽⁶⁾.

ثانياً: الأسباب المباشرة وغير المباشرة لحراك الريف

سيكون من الاختزال المخل لحراك الريف حصر أسبابه في موت محسن فكري؛ لأن المنطقة تعج بالأسباب التي تجعلها مركزاً للاحتجاج وعدم الرضى. وهي أسباب متعددة، منها التاريخي والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي.

يمكن، تجاوزاً، اعتبار موت فكري السبب المباشر أو النقطة التي أفاضت الكأس، فحرَّكت موجع الريفيين⁽⁷⁾. ولذلك، يلزمنا التطرق

والشعور بالانتماء إلى هوية جامعة مرتفع جداً، وتجاؤب الساكنة مرشح ليكون كبيراً، بحكم الواقع المشترك لكل مناطق الريف.

2. السياق الوطني لحراك الريف

لم تهدأ الاحتجاجات في المغرب بعد عام 2011؛ فقد ظلت وتيرتها في ارتفاع ملحوظ⁽⁵⁾، مع تغيُّر في طابعها؛ إذ انتقلت من احتجاجات ذات طابع سياسي ووطني، كما كان شأن حركة 20 فبراير، إلى احتجاجات فئوية ومناطقية وذات بعد مطربي اجتماعي بالأساس. لقد عرف المغرب احتجاجات واعتصامات للطلبة الأطباء، والأساتذة المتدربين، واحتجاجات ساكنة شمال المغرب ضد شركة أمانديس، وعرفت مناطق عديدة احتجاجات حول مطالب بسيطة أحياناً، ولكن بمشاركة شعبية واسعة، وهو ما يؤكد أن الاحتجاج في الفضاء العام أصبح الأسلوب الأشد ملاءمة لدى المغاربة، للتعبير عن عدم الرضى، وإيصال مطالبهم إلى من يهمه الأمر.

يطرح هذا الأسلوب أكثر من سؤال حول مؤسسات الوساطة، وجدوى الانتخابات والمؤسسات التي تفرزها وحدود تمثيليتها، كما يدل على وعي شعبي وتخلُّص من ثقافة الخوف والتردد، وانتقال من اللامبالاة والعزوف إلى المشاركة.

”

السياق الوطني كان مساعداً على نشوء دينامية احتجاجية في الريف، مع احتضانها ودعمها ومساندتها في سائر مناطق المغرب، ويفسر هذا كثرة التنسيقيات المحلية التي أُسست لمساندة حراك الريف، وكذا كثرة الوقفات والمسيرات

”

ولهذا، فالسياق الوطني كان مساعداً على نشوء دينامية احتجاجية في الريف، مع احتضانها ودعمها ومساندتها في باقي مناطق المغرب. ويفسر هذا كثرة التنسيقيات المحلية التي أُسست لمساندة حراك الريف، وكذا كثرة الوقفات والمسيرات، وضمنها المسيرة الوطنية في الرباط يوم 11 حزيران/ يونيو 2017 التي بيّنت حجم التعاطف الشعبي مع منطقة الريف ومطالبها.

6 الممثل البارز هنا هو زيارة الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، المغرب، وحضور أحداث الريف خلالها، وتصريحه الذي نقل فيه موقف الملك محمد السادس مما يجري في الريف، فقد صرح بأنه أثار الموضوع مع الملك محمد السادس، وأبلغه تفهمه لمطالب المحتجين.

7 وفي هذا تتشابه هذه الحالة مع إقدام البوعزيزي على إحراق جسده، باعتبارها النقطة التي أفاضت كأس عدم رضى التونسيين عن الأسلوب البوليسي لنظام بن علي عام 2011.

5 كشف مصطفى الخلفي، الوزير الناطق الرسمي باسم الحكومة، أن عدد الاحتجاجات في المغرب خلال هذا العام سجّل ارتفاعاً وصل إلى حدود أحد عشر ألف وقفة أو مسيرة احتجاجية، انظر: عبد اللطيف بركة، "11 ألف تظاهرة احتجاجية بالمغرب كل سنة.. الظاهرة بين الحق والقانون"، شبكة هبة بريس، 2017/6/5، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/Q3ctWn>

وهناك، كذلك، المماثلة في نقل رفات محمد عبد الكريم الخطابي من مقبرة الشهداء بالعباسية في القاهرة إلى المغرب، وهو مطلب ملخ لعائلته الصغيرة والكبيرة⁽¹¹⁾، ومطلب إدراج حرب الريف في المناهج المدرسية في المدارس العمومية والخصوصية ورفع التهميش عنها. ويبيق المؤشر الدال على عدم تحقق هذه المصالحة مع المنطقة هو عدم تنفيذ توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة بخصوص حفظ الذاكرة الجماعية للمنطقة⁽¹²⁾.

وهكذا، يتضح أن الأسباب التاريخية، بآثارها النفسية، حاضرة بقوة لتغلف الأسباب الاقتصادية والاجتماعية بطابع سياسي، وشحنة نفسية عالية، واستعداد كبير للاحتجاج، وهو ما جعل السلطات تتعامل مع أي احتجاج عادي في المنطقة بخلفيات سياسية وأمنية متشددة.

2. الأسباب السياسية لحراك الريف

على الرغم من أن الأسباب السياسية لحراك الريف لا يُعبر عنها بوضوح، فإنها تبقى حاضرة على نحو غير مباشر؛ لأنه لا يمكن فصل

إلى الأسباب الحقيقية/ غير المباشرة لهذا الحراك، ويمكن حصرها فيما يأتي.

1. الأسباب التاريخية لحراك الريف

خضعت منطقة الريف للاستعمار الإسباني، وشهدت مقاومة باسلة بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أعلن جمهورية ريفية، ولذلك، يرتبط اسمه دائماً بصفة الأمير. وبعد الاستقلال، ظل الارتباط العاطفي بالأمير الخطابي كبيراً في وجدان الريفيين، وعرفت المنطقة مقاومة لنظام الحسن الثاني، سواء في فترة ولاية عهده أو في فترة ملكه، الذي رد عليها بالعزل والتهميش والإقصاء، بدءاً من إصدار ظهير اعتبار إقليم الحسيمة منطقة عسكرية⁽⁸⁾، إلى حرمانها من بنية تحتية ومشاريع اقتصادية ومرافق ثقافية واجتماعية وخدمات أساسية؛ وهو ما جعل أبناء المنطقة مضطرين إلى الهجرة، سواء داخل المغرب أو خارجه. وتعد منطقة الريف من أكثر المناطق التي تشهد حركية بشرية في المغرب، ولا يستقر فيها أبناؤها، بسبب قلة فرص العمل والنشاط الاقتصادي أو انعدامهما.

وفي عهد الملك محمد السادس، وعلى الرغم من إنجاز خطوات إيجابية كثيرة⁽⁹⁾، فإن المصالحة الحقيقية مع المنطقة وأبنائها لم تتحقق. وقد اتضح هذا بجلاء يوم 20 شباط/ فبراير 2011، حين انضمت المنطقة إلى المدن التي استجابت لنداء الاحتجاج الذي أطلقته حركة 20 فبراير، وأسفرت الاحتجاجات يومها عن مقتل خمسة أشخاص حرقاً في وكالة بنكية⁽¹⁰⁾، ولم تتقدم نتائج التحقيق حول هذه الواقعة إلى يومنا هذا لعقاب المتسبب في ذلك، خصوصاً أن شباب المنطقة لا يصدقون الرواية الرسمية التي تحدث عنها وزير الداخلية حينها، الطيب الشرفاوي، في ندوة صحافية مساء 21 شباط/ فبراير 2011، قائلاً: إن "الضحايا الخمس التهمتهم النيران بعد أن علقوا داخل وكالة بنكية كانوا يحاولون سرقته بعد تفشي أعمال شغب تلت إحدى المسيرات التي دعت إليها حركة 20 فبراير".

8 نقص هنا الظهير الشريف رقم 1.58.381 الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1958، وقد نُشر في الجريدة الرسمية في العدد 2405، بتاريخ 1958/11/29. ويتزامن هذا التاريخ مع مرور شهرين تقريباً من تزعم محمد سلام أمزيان انتفاضة 1958-1959 التي اندلعت في السنوات الأولى للاستقلال؛ بحيث مثلت منطقة الريف مسرح كثير من هذه التطورات والأحداث التي كانت تغذيها شروط ومعطيات كثيرة، كان رد الدولة عليها هو القمع والتدخل الذي ووجهت به "انتفاضة الكرامة". ومثلت الانتفاضة واحداً من أهم الأحداث الجماعية التي جسدت الانتهاكات الفظيعة ضد هذه المنطقة وأبنائها، والتي توارثتها الأجيال، وسطرتها هيئة الإنصاف والمصالحة حين تحدثت عن حفظ الذاكرة الجماعية للمنطقة.

9 يمكن الحديث هنا عن خطوات كثيرة: مثل رفع العزلة عن هذه المناطق من خلال مشاريع طرق، ووصول القطار إلى الناظور، وزيارات الملك المتكررة للمنطقة، بصورة رسمية وغير رسمية، وإلقاء خطاب 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2001 من أجدير، وهو الخطاب الذي أعلن فيه الملك عن إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، معتبراً الأمازيغية مكوناً من مكونات الثقافة المغربية، والنهوض بها مسؤولية وطنية. ولا تخفى الدلالة الرمزية لاختيار المكان؛ لأن أجدير تقع قرب الحسيمة، وهي مسقط رأس ابن عبد الكريم الخطابي.

10 لمعرفة تفاصيل هذه الواقعة، انظر: عماد شقيري، "لغز 'محرقه الحسيمة'.. الحقيقة الغائبة تسير في طريق النسيان"، شبكة هسبريس، 2013/8/11، شوهو في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/W6Cu1h>

11 للاطلاع على تفاصيل مفاوضات نقل رفات الخطابي، انظر: حواراً مهماً مع ابنته، عائشة الخطابي، في مجلة زمان، عدد 28، 2015/3/17، شوهو في 2018/2/21، في: <https://goo.gl/QJHfu>

12 مما جاء في التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة: "حرصت الهيئة على إشراك المجتمع المدني بالمنطقة في بلورة مشاريع جبر الضرر الجماعي، وحضر ممثلون عنها جل الأنشطة التي نظمتها شبكة الأمل، ولجنة إعلان الريف، وفرع المنتدى المغربي للحقيقة والإنصاف في الموضوع. كما قامت الهيئة بزيارات للمنطقة، للتداول مع فاعلين جمعويين، وممثلي السكان، والسلطات المحلية حول مشاريع محدّدة. وعقدت الهيئة عدة لقاءات مع مجموعة البحث حول عبد الكريم الخطابي التي قدمت مذكرة مفصلة حول موضوع جبر الضرر بالمنطقة. كما استقبلت مقرها سعيد الخطابي، نجل عبد الكريم الخطابي، وتم التداول أثناء ذلك اللقاء حول أحداث الريف، وقضايا جبر الضرر، بما فيها عودة رفاة والده إلى المغرب. كما شكلت جلسة الاستماع العمومية المنظمة بالحسيمة فرصة للتداول حول قضايا الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بشكل خاص، وقضايا جبر الضرر الجماعي بشكل عام. ووعياً منها بأن أحداث الريف 1958-1959 تتطلب بحثاً أكاديمياً معمقاً (جمع شهادات الضحايا والفاعلين، الاطلاع على الأرشيفات المكتوبة بما فيها تلك المتوافرة في الأرصدة الوثائقية الأجنبية، عمل جدي لإعمال التقاطعات الضرورية والتحليل...)، وهي مهام لم تستطع الهيئة بلوغ نتائج متقدمة بصددها؛ واعتباراً أن كشف حقيقة ما جرى إبان تلك الأحداث يشكل مدخلاً أساسياً للمصالحة، توصي الهيئة بوجه خاص بـ:

- إدراج دراسة تلك المرحلة كأولوية من أولويات برنامج عمل معهد تاريخ المغرب الموصى بإحداثه؛
- متابعة الاتصالات مع عائلة عبد الكريم الخطابي، قصد دراسة شروط إعادة رفاة إلى المغرب حسب رغبة العائلة والأقارب.
- العمل على إعمال المشاريع والمقترحات المبيّنة أدناه:
- إنشاء مركز الأبحاث عبد الكريم الخطابي.
- اعتبار منزل عبد الكريم الخطابي معلمة تاريخية (ترميم منزل عبد الكريم الخطابي، واستعماله كمركز تاريخي للتعريف بشخصية عبد الكريم، وكمركز سوسيو ثقافي).
- إنشاء مؤسسة جامعية بمدينة الحسيمة.
- خلق برامج لفائدة نساء المنطقة (محادثة الأمية، إنجاز مشاريع سوسيو ثقافية ومشاريع اقتصادية لفائدة النساء، دعم تمدرس الفتيات، خلق مراكز لتوجيه وتكوين النساء على المستوى القانوني وعلى المستوى الصحي).
- توسيع وإعادة ترميم ضريح الشريف محمد أمزيان ببلدية أزغنغن.
- تنظيم معرض وطني متنقل حول عبد الكريم الخطابي.
- وللمزيد من التفاصيل حول توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني: المجلس الوطني لحقوق الإنسان، شوهو في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/uGc9mG>

للطرق السيارة (السريعة)، والتسريع في إتمام أشغال الطريق الرابطة بين تازة والحسيمة.

3. الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لحراك الريف

تعرف منطقة الريف نسب بطالة مرتفعة، خصوصاً وسط الشباب. وعلى الرغم من إمكاناتها المتعددة، الطبيعية والسياحية والفلاحية، تشهد هذه المنطقة ركوداً اقتصادياً؛ بفعل ضعف الاستثمارات والمشاريع الاقتصادية، باستثناء بعض المشاريع السياحية، وهذا ما جعل النشاط الرئيس في المنطقة التهريب وتجارة القنب الهندي. وتخفف تحويلات المغاربة الموجودين بكثرة في الخارج معاناة كثير من الأسر.

تفتقر المنطقة إلى المرافق الأساسية، مثل المستشفيات والجامعة، وتعيش شبه عزلة، بفعل غياب شبكة طرقية للربط بين مناطقها وبين المناطق الخارجة عن الريف، وذلك على الرغم من المجهودات التي عرفتتها المنطقة في السنين الأخيرة.

وقد ساهمت هذه الأسباب والمعاناة الحقيقية في تحقيق النفاذ شعبي واسع حول هذا الحراك وملفه المطلبي الذي تضمن جرماً لهذه المعاناة من خلال منهجية قاعدية وتشاركية؛ إذ شرع الناشطون في تسطير الملف من خلال نقاش مفتوح ومباشر، نظموه يوم الخميس 17 أيلول/ سبتمبر 2016 بفضاء ميرانار، وتم فيه الإعلان عن الشروع في تجميع مقترحات المطالب. وفي 14 كانون الثاني/ يناير، عمّمت لجنة الإعلام والتواصل⁽¹⁶⁾ وثيقة تخص مطالب الحراك بإقليم الحسيمة، لأجل تنقيحها وتعديلها من طرف المواطنين في مدة زمنية أقصاها فاتح شباط/ فبراير 2017 في تجمعات عامة في مختلف المناطق، وهو ما أثمر ملفاً مكوناً من 21 مطلباً، قُسمت إلى مطالب اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وبيئية، وإدارية، مع تمييز بعض المطالب ذات الصبغة الاستعجالية⁽¹⁷⁾. ومن أهم هذه المطالب تم التركيز على بناء جامعة متكاملة التخصصات، وما تتطلبه من مرافق، وإحداث معاهد عليا في تخصصات عدة، وتوسيع شبكة المؤسسات التعليمية بكامل أسلاكها على امتداد الريف، وفتح مختلف التخصصات والشعب والمسالك التعليمية المعتمدة من طرف وزارة التربية الوطنية (التخصصات التقنية والعلمية، والأقسام التحضيرية، وغيرها)، وإحداث مستشفى جامعي بإقليم الحسيمة، وإتمام أشغال مستشفى محمد الخامس الإقليمي، وتوفير طاقم طبي في جميع التخصصات، مع وضع حدٍ للفوضى والتسيب اللذين

المطالب الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية عن طابعها السياسي، مثل "تقديم جميع المتورطين في مقتل الشهيد محسن فكري إلى العدالة، والذهاب بالتحقيقات إلى أبعد مدى، مع إعلان النتائج في أقرب وقت، والكشف عن حقيقة ملف الشهداء الخمسة في البنك الشعبي خلال أحداث يوم 20 شباط/ فبراير 2011، إضافة إلى المطلبين الاستعجاليين المتمثلين في إلغاء الظهير الذي يعتبر إقليم الحسيمة منطقة عسكرية⁽¹³⁾، وتعويضه بظهير يعلن إقليم الحسيمة منطقة منكوبة، وإسقاط كل المتابعات القضائية في حق بسطاء مزارعي القنب الهندي بإقليم الحسيمة والمناطق الأخرى". ويضاف إلى ذلك المطالب التي ترددت كثيراً في شعارات الحراك وخطابات رموزه المطالبة بمحاكمة المفسدين، والإفراج عن المعتقلين. وقد تعزز كثير من هذه المطالب ذات الصبغة السياسية بعد الأحكام المخففة التي صدرت في 26 نيسان/ أبريل 2017 ضد المتورطين في مقتل فكري⁽¹⁴⁾.

ويبقى التسييس المباشر للحراك هو ما أقدمت عليه الحكومة وأحزاب الأغلبية، ونعتها للحراك بالانفصال، والتسييس، والعمالة للخارج، وتلقي تمويل خارجي، والتخوين، والمسّ بالوحدة الترابية، من خلال تصريحات صحافية أدلت بها قيادات هذه الأحزاب، عقب اجتماع عقده مع وزير الداخلية حول "مستجدات الأوضاع بإقليم الحسيمة"، قبل أن تتدارك هذه الأحزاب خطأها في لقاء لاحق يوم الأحد 14 أيار/ مايو وتصدر بياناً ملطفاً مقارنة بالتصريحات السابقة لقادتها⁽¹⁵⁾.

وساهم في حضور هذه المطالب السياسية، كذلك، الاستعمال المفرط للقوة في التدخلات الأمنية، والتوسع في الاعتقالات والمحاكمات، وعشوائيتها؛ بحيث أصبحت مطالب اعتذار الحكومة، والإفراج عن المعتقلين وتبرئتهم من التهم المنسوبة إليهم، وفك العسكرة عن المنطقة من المطالب ذات الأولوية. ويحسب لناشطي الحراك أنهم لم يسقطوا في فخ التسييس المباشر والمبالغ فيه لملفهم المطلبي الذي تضمن مطالب تنفي عنهم تهمة الانفصال، مثل مطالب ربط إقليم الحسيمة بخط السكة الحديدية، وربط الإقليم بالشبكة الوطنية

13 في المقابل، اعتبر وزير الداخلية أن هذا الظهير تم إلغاؤه تلقائياً بغير صدور التقسيم الإداري. ولذلك فظهير اعتبار المنطقة عسكرية غير موجود واقعياً.

14 انظر تفاصيل الأحكام: "القضاء يحكم في قضية فكري .. مُدّد سجنه وتعويض لورثة الضحية"، شبكة هسبريس، 2017/4/26، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/S25ofW>

15 للاطلاع على بيان هذه الأحزاب، انظر: "أحزاب الأغلبية الحكومية تخرج ببلّغ رسمي حول حراك الحسيمة"، شبكة دليل الريف، 2017/5/15، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/eFw95Y>

16 ظلت هذه اللجنة هي الناطقة باسم حراك الريف، وكان ناصر الزفزافي المتحدث باسمها.

17 للاطلاع على الملف المطلبي كاملاً، راجع: شبكة ريف 24، شوهد في 2018/2/21، في: <http://rif24.com/?p=11276>

التقسيم الجهوي الذي لم يكن منصفًا من النواحي التاريخية والثقافية والموضوعية والمجالية للريف، وضم الملف المطلبي، في المقابل، مطالب ثقافية عادية، من قبيل الشروع في إتمام أشغال متحف الريف، وفتح تحقيق نزيه بخصوص الخروق التي شملته، مع حفظ كل المآثر التاريخية للمنطقة وترميمها، وبناء مكتبة إقليمية تشتمل على مراجع تهتم بالدرجة الأولى كل الأبحاث والدراسات التي تهتم بالريف، وكل ما يتعلق بالبحث العلمي، وإحداث مركز ثقافي يشمل مختلف النشاطات والأجنحة الثقافية (مسرح، ومعهد موسيقى، وجناح خاص بالأطفال، وغير ذلك)، وإنشاء مراكز خاصة بالنساء، للاستفادة من مختلف التكوينات الثقافية والمهنية، موزعة على مختلف الجماعات الترابية في الإقليم والنواحي، ومطالب أخرى ذات صبغة رياضية، مثل إتمام أشغال الشطر الثاني من ملعب "ميمون العرصي" لكرة القدم، وإنشاء ملعب جديد لكرة القدم بمعايير دولية، وإنشاء ملاعب كبرى لكرة القدم في مدينتي تاركيست وإمزورن، وإنشاء مراكز تشمل مختلف النشاطات الرياضية، موزعة على مختلف جماعات الإقليم والنواحي.

ثالثًا: تعامل السلطة مع الحراك

لم تستقر السلطة في تعاملها مع حراك الريف على أسلوب واحد، ولكنها تبنّت خلال كل مرحلة أسلوبًا معيّنًا، بدءًا من التجاهل والمراهنة على الزمن لخفوته، ومرورًا بالتبني غير المباشر لمطالبه، ورغبة في الاستفادة منه لحل معضلات أخرى، والسعي إلى احتوائه، والعمل على تشويه مقاصده والتخفيف من تداعياته، والالتفاف على مطالبه، وانتهاءً باللجوء إلى قمعه، والعمل على اختراقه. كما تميّز أسلوب السلطة في التعامل مع الحراك بتنوع المخاطبين، والتباين بينهم. وما يمكن استخلاصه من كل ما سبق هو قدرة النظام على استرجاع زمام المبادرة، ليصبح هو المتحكم في مخرجات الحراك، والانتقال من وضع دفاعي يقتصر على ردود الفعل إلى موقع المبادرة الذي يحدّد سقف الحراك وإيقاعه.

1. منهجية السلطة في التجاوب مع

مطالب الحراك

تزامن انطلاق الحراك في الحسيمة مع إعلان نتائج الانتخابات التشريعية ليوم 7 تشرين الأول/أكتوبر، وما ترتب عنها من تعثر في تشكيل للحكومة استمر شهرًا⁽²²⁾.

22 على الرغم من إعلان نتائج الانتخابات يوم 8 تشرين الأول/أكتوبر 2016 وتكليف بنكيران يوم 10 تشرين الأول/أكتوبر، فإن التعثر استمر إلى يوم 5 نيسان/أبريل، أي ما يقارب 6 شهور.

يعيشهما المستشفى، وبناء مستشفى خاص بالسرطان في القريب العاجل، بمستلزماته وطاقمه الطبي، والإسراع في استكمال أشغال مستشفى إمزورن، وفتح تحقيق في الخروق التي حدثت فيه، وتعميم المستوصفات والخدمات الطبية على باقي مناطق الإقليم والنواحي، مع تزويدها بمختلف التجهيزات الضرورية (إسعاف، وأشعة، وأدوية، وغيرها) وكل الموارد البشرية الكفيلة بمباشرة العمل فيها، والحفاظ على قطاع الغابات وصيانتها وفق المعايير الدولية، والحفاظ على الثروة المائية للإقليم، مع تحسين تدبير استغلالها لمصلحة الساكنة، وتحسين جودة الماء الصالح للشرب، والحفاظ على شواطئ الإقليم، وعدم السماح بالتسيب والفوضى في تديرها.

4. الأسباب الثقافية لحراك الريف

على الرغم من حدة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، والتهميش التاريخي، والخصوصيات الهويةية والثقافية والجغرافية والتاريخية لمنطقة الريف، بسجل لناشطي حراك الريف أنهم لم يسقطوا في فخ الطائفية والانغلاق. ويمكن أي متتبع أن يلحظ خلوق الملف المطلبي من مطلب مراجعة التقسيم الجهوي الجديد للبلاد⁽¹⁸⁾ الذي قسّم منطقة الريف إلى جهتين؛ فقد أُلحق إقليم الحسيمة بجهة طنجة - تطوان - الحسيمة⁽¹⁹⁾، وأُلحق الشطر الآخر من الريف بجهة الشرق⁽²⁰⁾، وهو عكس ما كان عليه التقسيم الجهوي السابق⁽²¹⁾.

”

على الرغم من تضرر منطقة الريف، وتقسيم ترابها إلى جهتين، ونقل مركز الجهة خارج الريف، خلت مطالب الحراك من مطلب مراجعة التقسيم الجهوي

“

وعلى الرغم من تضرر منطقة الريف، وتقسيم ترابها إلى جهتين، ونقل مركز الجهة خارج الريف، وعلى الرغم من الصعوبات التي تترتب على هذا التقسيم، خلت مطالب الحراك من مطلب مراجعة

18 تبنى المغرب تقسيمًا ترابيًّا جديدًا قلّص عدد الجهات من 16 إلى 12 جهة، وفق المرسوم رقم 2.15.40 الصادر بتاريخ 2015/2/20 الذي يحدد عدد الجهات وتسمياتها ومراكزها والعمالات والأقاليم المكونة لها. للاطلاع على تفاصيل هذا التقسيم، انظر: الجريدة الرسمية، العدد 6340، 2015/3/5، ص 1481-1483.

19 أصبح مركز هذه الجهة هو طنجة، وتضم أقاليم طنجة، وأصيلة والمضيق، والفنيدق، وتطوان، والفحص، وأنجرة، والعرائش، والحسيمة، وشفشاون، ووزان.

20 أصبح مركز جهة الشرق والريف هو وجدة، وتضم مدينة وجدة، والناظور، وبركان، وانجاد، والدريوش، وجردة، وفكيك، وتاوريرت، وكرييف.

21 كان هذا التقسيم يضم 16 جهة، وضمها جهة الحسيمة - تازة - تاونات، انظر: المرسوم رقم 2.97.246، الجريدة الرسمية، العدد 4509، 1997/8/18، ص 3275 وما بعدها.

حاولت السلطة مرارًا احتواء الحراك واختراقه، وتقديم وعود عامة من دون ضمانات، كما أجرت، في أكثر من مناسبة، تحقيقات لتحديد المسؤوليات عن بعض الخروقات والتجاوزات، ولكن من دون تحديد تاريخ لنهاية التحقيق، أو إنزال العقوبات المستحقة على المتجاوزين⁽²⁷⁾.

ولكن الملحوظ أن السلطة⁽²⁸⁾ سرعان ما تجاوزت وضع الارتباك، وانتقلت من وضعية الدفاع والتبرير إلى الهجوم، لتصبح صاحبة المبادرة، والممسكة بزمام الأمور، سواء من خلال التوسع في التعزيزات الأمنية، أو منع الوقفات الاحتجاجية، أو الإفراط في الاعتقالات والتوقيفات، أو نقل معتقلي الحراك إلى الدار البيضاء، أو الإفراط في استعمال القمع ضد مسيرة الحسينة يوم العيد، 26 حزيران/ يونيو 2017، وكذا يوم 20 تموز/ يوليو 2017، أو شن حملة تشويه ضد الحراك ورموزه وأهدافه ومن يحركه، أو التحكم في العفو الملكي الذي ظل الكل ينتظره في عيد العرش يوم 30 تموز/ يوليو 2017. وتزامن ما سبق مع حملة استقطاب واختراق للحراك، بهدف تفجيرها من الداخل، والتركيز على التباينات التقديرية بين قيادته.

2. المؤسسات الرسمية المعنية بالتفاعل مع حراك الريف

لا يمكن الحديث عن تعامل السلطة مع الحراك من دون التطرق إلى المؤسسات الرسمية التي تدخلت في تدبير ملف حراك الريف؛ لأن إغفالها سيغيّب التناقضات التي طبعت هذا التفاعل، وتداخل المصالح بينها، وحقيقة الخلاف وصراع المؤسسات وسط النظام السياسي. ولأنه أمر استرعى الانتباه كثيرًا، وحظي بنقاش إعلامي واسع، فقد تضمن الخطاب الملكي لعيد العرش فقرة حاولت نفي أي تناقض بين هذه المؤسسات، وخصوصًا المربع الملكي⁽²⁹⁾.

أ- مجلس الجهة الترابية

يمكن اعتبار الجهة المحاور الأول لناشطي الحراك، بحكم طبيعة مطالبه المحلية، وبحكم "الصلاحيات الواسعة" التي أصبحت تملكها المجالس الجهوية المنتخبة. ولكن بسبب التعثر في نقل كثير من الاختصاصات وتفعيل كثير من الصلاحيات، بقي التداخل مع المصالح غير الممركزة لوزارة الداخلية التي ظلت هي الفاعل الرسمي

لقد ظلت حكومة تسيير الأعمال متجاهلة للاحتجاجات، والأحزاب منشغلة بتدبير التفاوض لتشكيل الائتلاف الحكومي، والمؤسسات المحلية و"الجماعات الترابية" "مستقلة" من التفاعل الإيجابي مع مطالب الساكنة، لأنها تعتبر ذلك اختصاصًا حكوميًا، وحتى السلطة المخزنية⁽²³⁾ حاولت توظيف هذه الاحتجاجات لإضعاف الموقع التفاوضي لبنكيران، رئيس الحكومة المعين، والاستفادة منه أكثر مما يمكن في تشكيل حكومة على مقاسها.

في هذه المرحلة، وأمام التجاهل الرسمي للاحتجاج، وبعد شهور من توقيف كل المشاريع الحكومية بسبب الحملة الانتخابية، نمت الاحتجاجات في المنطقة، وأتيحت لها فرصة تنظيم ذاتها وتشبيك مفاصلها، حتى أصبحت عصية على القمع والاختراق والتشتيت. وفي هذه المرحلة، حاول كثير من الأحزاب تبني هذه الاحتجاجات، واحتضانها، ومساندة مطالبها، والتحكم في وجهتها وسقفها، كما كان الشأن بالنسبة إلى بعض أحزاب المعارضة، وفي مقدمتها حزب الأصالة والمعاصرة، ولكن هذا لم يستمر كثيرًا بعد شعور جميع الأحزاب بأن هذه الاحتجاجات تجاوزتها، وبعد تصريحات رموز الحراك المنتقدة للأحزاب الرسمية، ونعتها إياها بالدكاكين السياسية، وتأكيد أن حراكهم مستقل بقيادة "الناشطين الأحرار الممارسين لقناعاتهم بكل حرية ومسؤولية، بعيدًا عن وصاية أي تصور لحزب أو حركة أو تنظيم سياسي" جمعوي⁽²⁴⁾.

بعد ذلك، لجأت السلطة إلى توريث الحكومة وأحزاب الأغلبية في الاصطدام مع ناشطي الحراك⁽²⁵⁾، والانتقال مباشرة إلى تبني مطالب الحراك، وتقديم وعود بتبليتها، وانتقال كثير من الوزراء إلى الحسينة للتواصل مع الساكنة وتفقد المشاريع هناك، وتغطية مسيرة الحسينة في القنوات التلفزيونية الرسمية، ولكن الملحوظ أن انفتاح المسؤولين على الساكنة وحوارهم في المنطقة استثنى ناشطي الحراك ورموزه، وهو ما جعل الخطوة الحكومية تولد ميتة.

بعد ذلك، انتقل تعامل السلطة مع الحراك إلى تغليب المقاربة الأمنية، وتجلى ذلك في التعزيزات الأمنية في المنطقة، والتضييق على الوقفات والاحتجاجات، وجمع كثير من المسيرات، والشروع في الاعتقالات والمحاكمات⁽²⁶⁾ بعد فشل الرهان على عامل الزمن لتخفت الاحتجاجات تلقائيًا.

27 أفضل مثال هنا هو الأحكام المخففة التي أصدرت يوم 27 نيسان/ أبريل في حق المتهمين في موت محسن فكري.

28 يمكن، من خلال دراسة كثير من الحركات الاحتجاجية في المغرب، استنتاج هذه الخصيصة لدى النظام المغربي، وهي القدرة على التأقلم مع أوضاع جديدة، وسرعة الاستدراك والخروج من الوضع الدفاعي والتبريري، والقدرة على امتصاص الضربات.

29 انظر الخطاب الملكي لعيد العرش، وخصوصًا الفقرة: "هناك من يقول بوجود تيار متشدد، وآخر معتدل، يختلفان بشأن طريقة التعامل مع هذه الأحداث. وهذا غير صحيح تمامًا".

23 نقصد هنا المؤسسات المركزية وغير الممركزة التي لها يد في صناعة القرار من دون أن تكون منتخبة.

24 الملف المطلي كاملًا، شبكة ريف 24.

25 من خلال دفعهم إلى نعت الحراك بالانفصال، والعمالة، والتمويل الخارجي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاجتماع كان بدعوة من وزير الداخلية، لا من رئيس الحكومة.

26 انظر بيان الجمعية المغربية لحقوق الإنسان الذي قدمته في ندوة صحافية بعنوان: "معطيات أولية حول الحراك الشعبي بالريف"، 1 آب/ أغسطس 2017. وقد حددت الجمعية عدد المعتقلين بـ 249، من دون احتساب من يُفَرَّج عنهم.

وعلى الرغم من محدودية مساهمتها في صناعة القرار بخصوص هذا الملف، ظل سيف المساءلة مصلاً على رقاب كثير من الوزراء، باعتبار أن الحكومة هي الواجهة الأمامية، دستورياً وسياسياً.

ج- وزارة الداخلية

استثنينا وزارة الداخلية من الحكومة على الرغم من أنها جزء منها، وأن وزير الداخلية يعمل تحت رئاسة رئيس الحكومة، لأن الواقع بين وزارة الداخلية، من خلال العامل والوالي ووزير الداخلية، ظلت هي الفاعل الرئيس في تدبير هذا الملف، تخطيطاً وتنفيذاً، من دون الرجوع إلى رئيس الحكومة وأعضائها⁽³⁴⁾.

لقد كشف حراك الريف حقيقة الانسجام الحكومي، وفنّد الطبيعة السياسية للحكومة، وفضح حقيقة السلطة الرئاسية⁽³⁵⁾ لرئيسها على الوزراء، خصوصاً التكنوقراط غير الحزبيين⁽³⁶⁾. كما كشف عن محورية المديرية العامة للأمن الوطني، وإدارة مراقبة التراب الوطني في تدبير ملف الحراك، على الرغم من كونها مديرتين تابعتين لوزارة الداخلية، وهو ما جعل أصواتاً كثيرة تصف معالجة الملف بالمقاربة الأمنية، وأكد هذه المكانة المحورية لهذه المؤسسة الخطاب الملكي لعبد العرش⁽³⁷⁾.

د- المجلس الوطني لحقوق الإنسان

عبر المجلس الوطني لحقوق الإنسان، من خلال لجنته الجهوية لإقليم الحسيمة والناظور، عبر بلاغ رسمي، أثناء استعداد ناشطي الحراك لتنظيم مسيرة الغضب يوم 18 أيار/ مايو 2017، عن "استعداده للوساطة بين مكونات الحراك، ممثلاً في لجنته، ومن تكلفه السلطات العمومية، مع تعهدها بفتح أبوابها للتنسيق وعقد لقاءات بين الطرفين في أي مكان يختارونه". وأوصت اللجنة بتجنب استخدام

34 يمكن في هذا الصدد، التذكير بتصريحات مصطفى الرميد، وزير الدولة المكلف بحقوق الإنسان، الذي امتنع عن تقديم أي تصريح حول أحداث الحسيمة بحجة غياب المعطيات.

35 تم تسويق تسمية رئيس الحكومة عام 2011 باعتبارها إنجازاً كبيراً في الدستور الجديد حينها، بعدما عوّض هذا المصطلح صيغة الوزير الأول حينها الذي كان منسقاً للعمل الحكومي فقط، وليس صاحب سلطة رئاسية على الوزراء. فقد كان صاحب السلطة الرئاسية على الوزراء هو الملك من خلال المجلس الوزاري، ولكن تمت دسترة المجلس الحكومي في دستور عام 2011، ومنح رئيس الحكومة السلطة الرئاسية على أعضاء الحكومة، انظر الفصل 89 من الدستور.

36 أو ما يُصطلح إعلامياً على تسميتهم "وزراء السيادة".

37 جاء في خطاب العرش يوم 29 حزيران/ يونيو 2017: "إن تراجع الأحزاب السياسية وممثليها عن القيام بدورها، عن قصد وسبق إصرار أحياناً، وبسبب انعدام المصداقية والخبرة الوطنية أحياناً أخرى، قد زاد من تأزيم الأوضاع. وأمام هذا الفراغ المؤسف والخطير، وجدت القوات العمومية نفسها وجهاً لوجه مع الساكنة، فتحمّلت مسؤوليتها بكل شجاعة وصر، وضبط للنفس، والتزام بالقانون في الحفاظ على الأمن والاستقرار. وهنا أقصد الحسيمة، رغم أن ما وقع يمكن أن ينطبق على أي منطقة أخرى. وذلك عكس ما يدعيه البعض من لجوء إلى ما يسمونه بالمقاربة الأمنية، وكأن المغرب فوق بركان، وأن كل بيت وكل مواطن له شرطي يراقبه".

الرئيس⁽³⁰⁾ منذ بداية الحراك، مستفيدة من تردّد مجلس الجهة⁽³¹⁾، وتذبذب موقفه بين مساندة مطالب الحراك والرغبة في الاستفادة من تداعياته والتحكم في مخرجاته.

وتجسّد هذا التردّد في مواقف رئيس الجهة، إلياس العماري الذي ركز جلّ تصريحاته، منذ بداية الحراك، على تحميل المسؤولية للحكومة التي لم تَف بالتزاماتها، وإظهار اختلافه مع كثير من التدخلات الأمنية، والمطالبة بفتح تحقيق حول التأخر في إنجاز كثير من المشاريع المبرمجة، والبرهنة على عدم مسؤوليته بمراسلات للجهات الحكومية صاحبة الاختصاص. وبقي الأمر كذلك حتى مبادرة الجهة إلى تنظيم المناظرة الوطنية حول الأوضاع بإقليم الحسيمة في 16 حزيران/ يونيو، وهي المناظرة التي عرفت مقاطعة واسعة من ناشطي الحراك، وكذا بعض مكونات الائتلاف الحكومي.

ب- الحكومة

تزامن توقيت حادث مقتل فكري مع فراغ حكومي؛ فقد كان تدبير الشأن الحكومي مقصوراً على حكومة تصريف أعمال يقودها بنكيران⁽³²⁾، تميزت، إضافة إلى صلاحياتها المحدودة، باستقالة كثير من وزرائها بعد التأويل الذي قدمته الأمانة العامة للحكومة للدستور⁽³³⁾، إضافة إلى فترة العطلة التي عرفها كثير من المشاريع بعد قرار لوزارة الداخلية بتوقيف كثير من هذه المشاريع، تجنباً لتوظيفها في الحملة الانتخابية للأحزاب. وزاد من جمود الحكومة ارتفاع حدة الصراع السياسي بين رئيسها، من حزب العدالة والتنمية، ورئيس الجهة، من حزب الأصالة والمعاصرة، وتقادف المسؤولية بين المؤسستين.

وحتى بعد تشكيل حكومة العثماني، بقي تدخل الحكومة محتشماً في تدبير الملف، بل يمكن اعتبار الحكومة المتضرر الأول من تداعيات هذا الملف؛ لأنها تورطت في اتهام الحراك بالانفصال والتسييس وتلقي تمويل أجنبية، وهذا ما جعل أعضاءها غير مرحب بهم لدى ساكنة الحسيمة أثناء زيارة كثير من الوزراء المنطقة، وجعلهم عرضة للتنكيت والاستهزاء. وتورطت الحكومة بعد ذلك في إصدار بلاغ منع مسيرة 20 تموز/ يوليو 2017.

30 لوحظ حضور عامل إقليم الحسيمة، نائب وكيل الملك، في الثالثة صباحاً من ليلة مقتل محسن فكري، ومحاوَرته المحتجين، وبعد ذلك دخل على الخط والي الجهة، محمد اليقوي، الذي دخل في حوارات فاشلة مع ناشطي الحراك.

31 يتأسس مجلس جهة طنجة - تطوان - الحسيمة حزب الأصالة والمعاصرة في شخص أمينه العام إلياس العماري.

32 هو في الوقت نفسه رئيس الحكومة المعين لتشكيل حكومة جديدة بعد انتخابات 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2016.

33 للتوسع في هذا التأويل، انظر: عمر إحرشان، "خرافة التأويل الديمقراطي للدستور بخصوص حكومة تصريف الأعمال"، شبكة هسبريس، 2016/10/25، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/xbMMN>

المجلس على أن تُوَجَّه حصرًا إلى الجهة المعنية؛ وأن الاستغلال الأحادي لبعض الشذرات من وثيقة داخلية قد أدى إلى استنتاجات لم يخلص إليها العمل الذي أنجزه الخبيران المكلفان من المجلس بشأن الثبوت القطعي لتعرض كل المعتقلين الذين تم فحصهم والاستماع إليهم للتعذيب، وأن العمل الذي أنجزه الطبيبان الخبيران يندرج ضمن وسائل العمل التي يتبعها المجلس، ضمن وسائل أخرى، لإنجاز تقاريره حول مثل هذه الأحداث. ولذلك، فإنها ليست تقارير نهائية تمثل موقف المجلس وما تحصل لديه من اقتناعات بناءً على التحريات والأبحاث والمقابلات والمعانيات التي تنجزها فرق عمله ميدانيًا. كما أكد البلاغ أن المجلس وضع ما أنجز من عمل الخبيرين رهن إشارة الجهة المختصة، لتتخذ بشأنه ما تراه ملائمًا من تدابير قانونية، على اعتبار أن المجلس لا يمكنه، أخلاقيًا وقانونيًا، التطاول على اختصاص السلطة القضائية، وهذا ما أوصى به الخبيران. واعتبر المجلس أن الخلاصات والتوصيات التي سينتهي إليها تقريره الشامل والنهائي حول أحداث الحسيمة وتداعياتها هي المرجع الوحيد للوقوف على تقييمه مختلف المجريات لكل الأحداث في أبعادها ومراحلها، بكل حياد وموضوعية ومسؤولية، كما دأب المجلس على ذلك في كل تقاريره⁽⁴¹⁾. كما اتضح دور المجلس في الوساطة مع المضرين من أجل فك إضرابهم عن الطعام في تموز/ يوليو.

هـ- المؤسسة الملكية

وضعت المؤسسة الملكية في الترتيب الأخير على الرغم من أنها الفاعل الأساس الذي تنهل من توجهاته المؤسسات الأخرى، وتقع، من الناحية الهرمية، فوق كل المؤسسات الأخرى. لقد اخترنا وضعها في الترتيب الأخير لأنها حاولت البقاء على الحياد، والنأي بالنفس عن التدخل المباشر في مجريات الحراك منذ انطلاقه، وبقيت بعيدة عن تفاعلاته، وتم الإعلان عن أول موقف للملك من خلال الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، أثناء زيارته المغرب يوم 14 حزيران/ يونيو، إذ أكد أن الملك محمد السادس حريص على تهدئة الأوضاع في الريف من خلال الاستجابة لمطالب الحركات وإيلاء هذه المنطقة الاهتمام، مضيًا أنه طرح الموضوع طرحًا طبيعيًا ومباشرًا مع الملك حول الأوضاع في هذه المنطقة التي أبلغه بأنها عزيزة عليه وتعود أن يقضي فيها عطلته⁽⁴²⁾.

كما خصص الملك جزءًا من المجلس الوزاري، يوم 25 حزيران/ يونيو، لهذا الحراك حين "عبر للحكومة، وللوزراء المعنيين ببرنامج الحسيمة منارة المتوسط"، خصوصًا، عن استيائه وانزعاجه وقلقه من عدم

القوة، وبالحفاظ على السلم، ووصفت "الوضع المتأزم" في الحسيمة بأنه جاء بعد أن فشلت تجاهه محاولات الوصول إلى حل، داعية إلى البدء بتنفيذ سياسة التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة للمنطقة، المبينة على الحوار. وحذرت اللجنة من أن هذا الوضع يندب بالأسوأ، في ظروف ما زال في الإمكان التراجع عنها، والاحتكام إلى العقل والتبصر، والخروج من النفق⁽³⁸⁾.

كما عقدت اللجنة الجهوية للمجلس في الدار البيضاء لقاءات مع مجموعة من المعتقلين وعائلاتهم، في إطار إجراء سلسلة جلسات استماع بخصوص المتابعين، وإجراء وساطة بين عائلات المعتقلين ومندوبية السجون من أجل تسهيل لقاء العائلات بأبنائهم المعتقلين⁽³⁹⁾.

وتبقى المناسبة التي حضر فيها المجلس كثيرًا هي الجدل الذي صاحب تسريب تقريره بشأن الخبرات الطبية المنجزة حول بعض معتقلي الحراك؛ فقد صرح وزير العدل بأنه أحال التقرير، فور تلقئه، على الوكيل العام للملك لدى محكمة الاستئناف في الدار البيضاء، والوكيل العام للملك لدى محكمة الاستئناف في الحسيمة، لضم هذه الخبرات إلى ملفات القضايا المعروض بعضها على قاضي التحقيق وبعضها الآخر على المحكمة، لاتخاذ المتعين قانونًا.

لقد كان لتسريب هذه الوثيقة تداعيات كشفت حقيقة التباين في التقديرات بين بعض المؤسسات؛ فالمديرية العامة للأمن الوطني أصدرت بلاغًا، يوم 4 تموز/ يوليو 2017، نفت من خلاله ما سمته المزاعم الموجهة لمصالحها وموظفيها بممارسة التعذيب في حق المعتقلين، التي أوردتها البعض بصيغة الجزم والتأكيد، استنادًا إلى وثيقة جزئية منسوبة إلى المجلس الوطني لحقوق الإنسان، تم تسريبها خارج الإطار الرسمي بكيفية مشوبة بالتجاوز. وأكدت المديرية حرصها على صون حقوق الإنسان كما هو متعارف عليها وطنيًا ودوليًا، واحترام ضمانات الحرية الفردية والجماعية خلال ممارسة الوظيفة الشَّرطية، وكذا ترتيب المسؤوليات القانونية في ضوء الإجراءات والمساطر القضائية، معربة عن رفضها، في المقابل، توجيه التهم ونشر الادعاءات في ضوء وثيقة جزئية وغير رسمية، لم تعرض على مصالح الأمن الوطني، بالقنوات الرسمية، ليتسنى الرد على ما جاء فيها⁽⁴⁰⁾.

وأدى هذا الموقف إلى أن يُصدر المجلس بلاغًا تصحيحيًا، في اليوم نفسه، أكد فيه استغرابه عملية التسريب الجزئي لوثيقة حرص

38 انظر: "المجلس الوطني لحقوق الإنسان يعرض وساطته في حراك الريف"، شبكة اليوم 2017/5/18، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/cGFyzK>

39 انظر: "المجلس الوطني لحقوق الإنسان يستمع لمعتقلي الحراك"، شبكة ريف 24، 2017/6/14، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/4pJzYz>

40 انظر نص البلاغ في: "عاجل .. بلاغ أمني صادر عن المديرية العامة للأمن الوطني"، شبكة فاس نيوز، 2017/7/4، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/5HoqhN>

41 انظر: "الصار: ليست هناك أي تعديلات على تقرير 'تعذيب' معتقلي الريف"، شبكة اليوم 24، 2017/7/4، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/71zeMF>

42 انظر نص التصريح: "ماكرون: الملك قلق حول الوضع في الريف ويعتبر احتجاجاته شرعية ويرغب في التهدئة (فيديو)"، شبكة لكم، 2017/6/14، شوهد في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/nt4Cas>

الريف بتعليمات من الملك⁽⁴⁶⁾، وتبرير وزير الدولة المكلف بحقوق الإنسان، الثاني في البروتوكول بعد رئيس الحكومة، صمته عن الخروج التي تُرتكَب بأنه لا يملك معطيات شاملة. وقد مر أكثر من شهر على تصريحه، ولم يستجمع تلك المعطيات الناقصة، وحتى لما صرح بعد طول صمت، لم يخرج عن تبرير سلوكات وزارة الداخلية، واتهام احتجاجات الحراك بأنها ليست قانونية. وتبرير كاتب الدولة المكلف بالنقل صمته بأنه كلام. تؤكد هذه المعطيات غياب فصل السُّلط، وغياب حكومة حاکمة، وهو ما تنبه له ناشطو الحراك مبكرًا، فرفضوا محاوره أي جهة غير الملك، أو من يكون مبعوثًا منه. وتطبق الملحوظة نفسها على البرلمان الذي عجز عن التفاعل مع الحراك، وعن المبادرة إلى تشكيل لجان تقصي الحقائق حول التأخر في تنفيذ مشاريع مبرمجة في المنطقة لأجرأة المبدأ الدستوري المنصوص عليه في الدستور⁽⁴⁷⁾.

ب- النقائص السياسية

يعكس حراك الريف تحولًا كبيرًا وسط المجتمع، وتقدمًا نوعيًا لم تتمكن السلطة والوسائط المجتمعية الرسمية من مواكبته. ولذلك، تعالت أصوات كثيرة تُنبئُ إلى هذا الأمر وكأنه اكتشاف جديد، مع العلم بأن المتتبع العادي للمشهد الحزبي والنقابي يستنتج أن إضعاف هذه الوسائط لم يأت مصادفة، ولكنه نتيجة لسياسة ممنهجة، اعتمدت منذ مدة، وسرَّعَ نتائجها قيادات عزلت نفسها عن الشارع، والحكومة والبرلمان والأحزاب تدفع اليوم نتيجة قبولها بنتائج انتخابات شكلية، شهدت أكبر عملية عزوف ومقاطعة، وضريبة قبول تشكلها من دون منطق سياسي، لأن هذا أفقدها عنصر القوة الذي يمكنها الارتكاز عليه في مواجهة السلطات المتحكمة في القرار السياسي، وقد لحظنا جميعًا تلاعب وزير الداخلية المعين بإرادة مكوناتها، وتوريثها في نعت الحراك بأنه انفصالي، والتراجع عن ذلك بسرعة، ولكن بعد فوات الأوان. ما حدث للحكومة، بمناسبة حراك الريف، سيرافقها طوال ولايتها، لأنها تحمل في طياتها عناصر ضعفها المتمثلة في فقدان التمثيلية الشعبية، وافتقارها إلى الانسجام السياسي، وضعف تأييد قواعدها، وسوء اختيار وزرائها، وتحكُّم "وزراء السيادة" في توجهاتها. ومنظر الوزراء وهم يتجولون في أحياء الحسيمة وازدراء المواطنين لهم⁽⁴⁸⁾ ولامبالاتهم بوجودهم دليل على إرادة إذلالهم والمزيد من إخضاعهم.

تنفيذ المشاريع التي يتضمنها هذا البرنامج التنموي الكبير الذي تم توقيعه تحت رئاسة الملك، في تطوان في تشرين الأول/ أكتوبر 2015، في الآجال المحددة لها⁽⁴³⁾. وفي خطوة دالة على حدة الغضب الملكي، أصدر الملك تعليماته، لوزيرَي الداخلية والمالية، قصد قيام المفتشية العامة للإدارة الترابية بوزارة الداخلية والمفتشية العامة للمالية، بالأبحاث والتحريات اللازمة بشأن عدم تنفيذ المشاريع المبرمجة، وتحديد المسؤوليات، ورفع تقرير بهذا الشأن، في أقرب الآجال. وقد قرر الملك عدم الترخيص للوزراء المعنيين بالاستفادة من العطلة السنوية، والانكباب على متابعة سير أعمال المشاريع المذكورة⁽⁴⁴⁾.

واتضح كذلك اهتمام الملك بالحراك من خلال تقديم خطاب العرش عن موعده بيوم، بحيث تضمن هذا الخطاب حديثًا عن أحداث الحسيمة، وهو ما لم يتحقق عام 2011؛ إذ لم يتطرق الملك نهائيًا إلى حركة 20 فبراير واحتجاجاتها ومطالبها، وفُصل الرد عليها ردًا غير مباشر في خطاب 9 آذار/ مارس 2011، مع إلقاء اللائمة على الحكومة والأحزاب. وسبق هذا الخطاب عفو عن بعض المعتقلين بمناسبة هذه الاحتجاجات⁽⁴⁵⁾.

3. النقائص الدستورية والسياسية والقانونية

لا ينبغي للاختلالات المنهجية والقصور المؤسسياتي حجب حقيقة النقائص الدستورية والسياسية والقانونية والمؤسسية التي تجعل الاحتجاج في الشارع الخيار المفضل للمتضررين من الأثر السلبي للسياسات العمومية المتبعة.

أ- النقائص الدستورية

كشف هذا الحراك أن الإطار الدستوري لا يضمن فصلًا بين السُّلط، وتوزيعًا متوازنًا لها، وأن المغرب ما زال محكومًا بملكية تنفيذية، تتحكم في مفاصل الحياة العامة كلها، وأن الحكومة والبرلمان والجماعات الترابية محض واجهة، ويؤكد هذا صمُّ الحكومة وعجزها، وتصريح ناطقها الرسمي بأن الحكومة تعمل "في موضوع

43 "هؤلاء هم الوزراء والمسؤولون الممنوعون من العطلة بقرار ملكي"، أحداث أنفو، 2017/6/28، شوهد في 2018/2/21، في: <http://ahdath.info/303157>

44 المرجع نفسه.

45 اقتصر العفو الملكي على بعض ناشطي الحراك، واستثنى قاده ورموزه؛ فلم يستفد منه إلا 41 ناشطًا، 5 كانوا معتقلين في سجن الناظور، وسيليا الزباني التي أُطلق سراحها من سجن عكاشة في الدار البيضاء، و11 قاصرًا كانوا في حالة سراح، متابعين بتهم إهانة رجال القوات العمومية، والتظاهر من دون تصريح، وتجمهر مسلح من شأنه أن يمثل تهديدًا لمصالح الأشخاص والأموال. ومن بين المستفيدين أيضًا، 12 ناشطًا كان قد تم تنفيذ الحكم عليهم، و5 ناشطين حوكموا ابتدائيًا، واستأنفوا أحكامهم القضائية، في حين كان 9 ناشطين في السجن الاحتياطي.

46 "الملك المغربي يصدر عفوا عن 562 معتقلا ويستثنى منه نشطاء حراك الريف"، هاف بوست عربي، 2017/6/25، شوهد في 2018/2/21، في: <https://goo.gl/EksEZg>

47 نص الفصل الأول من الدستور على أن "يقوم النظام الدستوري للمملكة على أساس فصل السُّلط، وتوازنها وتعاونها، والديمقراطية المواطنة والتشاركية، وعلى مبادئ الحكامة الجيدة، وربط المسؤولية بالمحاسبة".

48 تم تداول صور وفيديوهات لزيارة الوزراء بنوع من الاستهزاء، وخصوصًا صورهم ببدايات وربطات العنق وسط الشارع وليس على رصيفه، ورفض صياد إطالة الحديث مع وزير الفلاحة، أختوش، مبرر أن لا وقت لديه "ما عندي بو الوقت".

ج- النقائص القانونية

مثل حراك الريف، وغيره من الاحتجاجات الكثيرة في الشارع، ضربة حقيقية للديمقراطية التشاركية والجهوية المتقدمة؛ فلم يمس على انتخابات الجماعات الترابية، وإقرار القوانين التنظيمية المنظمة لها، والقوانين المنظمة لنظام العرائض والملتمسات سوى مدة وجيزة حتى اتضح استغناء المواطنين عن كثير من مقتضياتها التي قُدمت حينها بوصفها آليات للإدماج والمشاركة، وتخليهم عن اعتماد كثير من الآليات التشاركية التي تضمنتها، وفي مقدمتها نظام العرائض⁽⁴⁹⁾. وي طرح هذا التمسك بالاحتجاج في الشارع أكثر من سؤال حول جدوى المؤسسات الموجودة والقوانين الجاري العمل بها؛ لأنها لم تستطع تحقيق التشاركية والإدماج لفئات واسعة من المواطنين. وهو أمر لم يقتصر على حراك الريف، ولكنه أصبح حالة عامة بالنسبة إلى مناطق وفئات كثيرة.

بناءً على ما سبق، لم يعد مستغرباً لجوء المحتجين إلى الشارع، "الفضاء العام"، للتعبير عن مطالبهم، والضغط لتحقيقها، مع تجاهل، إن لم نقل رفض، المؤسسات الرسمية، سواء الحكومة أو البرلمان أو الجماعات الترابية، أو مؤسسات الحكامة المنصوص عليها دستورياً. ويستنتج من هذا السلوك والمنهج حكم بانعدام جدوى هذه المؤسسات، بسبب افتقارها صفة التمثيلية، وانعدام تمتعها بالاختصاصات والإمكانات اللازمة للتجاوب الإيجابي مع مطالب المحتجين.

رابعاً: حراك الريف: السمات والخصائص

على الرغم مما تعرّض له حراك الريف من تجاوزات صادرة عن المؤسسات الرسمية، ومن تعميم وتشويه من الإعلام الرسمي، فقد حافظ على سلميته، وطابعه الشبابي، وشعبيته، واستمراريته، وتمده الجغرافي، وتجدد أساليبه، وقوة تواصله، وتنوع أشكاله النضالية والتنظيمية، والحفاظ على مسافة ابتعاد عن الأحزاب الرسمية، وقدرته على المزاجية بين الراديكالية والمرونة، وعلى المزاجية بين طابعه المحلي وإشعاعه الوطني والدولي. ولذلك، سنتوسع بقدر أكبر في تبين هذه الخصائص التي ميزت هذا الحراك، ليتضح من خلالها أننا بصدد تطور نوعي في السلوك الاحتجاجي، وأمام جيل جديد من الحركات الاحتجاجية، يستفيد من تراكم الحركات السابقة، ويضيف إليها سمات جديدة.

49 نص الفصل 13 من الدستور: "تعمل السلطات العمومية على إحداث هيئات للتشاور، قصد إشراك مختلف الفاعلين الاجتماعيين في إعداد السياسات العمومية وتنفيذها وتقييمها"؛ ونص الفصل 14: "للمواطنات والمواطنين، ضمن شروط وكيفيات يحددها قانون تنظيمي، الحق في تقديم ملتمسات في مجال التشريع"؛ ونص الفصل 15: "للمواطنات والمواطنين الحق في تقديم عرائض إلى السلطات العمومية؛ ويحدد قانون تنظيمي شروط وكيفيات ممارسة هذا الحق". والأمر نفسه فيما يخص الجماعات الترابية، فقد اشتملت المادة 120 من قانون الجهات، والمادة 114 من قانون العمالات والأقاليم، والمادة 123 من قانون الجماعات على حق المواطنين في تقديم عرائض.

1. الطابع السلمي للحراك

على الرغم من تجاهل حراك الريف مدة غير قصيرة، وتخوين المشاركين فيه بمختلف النعوت، ومحاولات عزله في رقعة جغرافية صغيرة، وحملات التشويه والدعاية المضادة له، وما ووجه به من قمع وعنف، فإن هذا الحراك الشعبي لم ينزل إلى ردود أفعال، وإلى عنف مضاد لعنف السلطة، ولكنه تمسك بسلمية وسائله، سواء في تعامله مع قوات الأمن أو مع مرافق الدولة. وهذه خصيصة صارت ملازمة لكل الاحتجاجات الشعبية، مؤكدة النضج المجتمعي واستيعاب المحتجين لقوة السلمية في ربح رهان المساندة، وتفويت الفرصة على المتربصين بالحراك.

لقد أصبحت السلمية جزءاً من الاحتجاج، وصارت ثقافة عامة منذ "حركة 20 فبراير"، وهو ما يخالف ما كان سائداً في كل الانتفاضات الشعبية قبل عام 2011، مثل انتفاضات 23 آذار/ مارس 1965، و20 حزيران/ يونيو 1981، و19 كانون الثاني/ يناير 1984، و14 كانون الأول/ ديسمبر 1990.

2. الطابع الشبابي للحراك

على الرغم مما يُقال عن عزوف الشباب ولامبالاتهم، فإن المحرك الأساس لهذا الحراك هو الشباب. وهذا ما ينسف هذه المسلمة، ويفرض البحث عن فرضيات أخرى لتفسير عزوف الشباب عن المشاركة في الانتخابات، على الرغم من أنها الأقل ضرراً بالنسبة إلى الشباب، وتفضيلهم الأسلوب الأكثر مخاطرة، لاقتناعهم بجداها. ولعل إطلاقة سريعة على سير رموز الحراك تؤكد أن متوسط السن لا يتجاوز 35 سنة، وأن عدد الذين تفوق أعمارهم الأربعين سنة لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

تميّز حراك الريف بطابعه الشبابي، قيادةً ومشاركةً وتفاعلاً مع فاعلياته، وهو ما يقتضي التمييز بين العزوف الانتخابي والعزوف السياسي؛ لأن هذا الحراك وتكلفته وتداعياته، كل ذلك لا يقاس بتكلفة المشاركة الانتخابية، ومع ذلك ركب الشباب كل المخاطر لاقتناعهم بجدوى الحراك والاحتجاج في الشارع، وبجدوى العمل بعيداً عن المظلات الحزبية الرسمية.

وتوضح دراسة رموز هذا الحراك أيضاً، أن ثمة نخبةً بمعايير جديدة ومختلفة في طور التشكّل والتأثير في صناعة القرار السياسي مستقبلاً. وهو ما يطرح أكثر من سؤال نقدي عن الممارسة الحزبية الرسمية، ودور الأحزاب في تأطير المواطنين، وقدراتها الاستقطابية.

3. الطابع الشعبي للحراك

على الرغم من طول مدة الحراك، والأوضاع الاجتماعية الصعبة، وصعوبة التضاريس، فقد استطاع هذا الحراك استقطاب شرائح واسعة من المواطنين، إلى درجة أن الأشكال الاحتجاجية الجامعة

5. طبيعة الخطاب المؤطر للحراك

تكاد تكون طبيعة الخطاب المؤطر لحراك الريف نقطة قوة تميّزه من غيره⁽⁵³⁾؛ فقد اتسم الخطاب المستعمل بالبساطة والمباشرة والعفوية والتلقائية والقرب والإقناع وقوة الحجاج واستعمال خطاب ديني اجتماعي، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مناسبات كثيرة⁽⁵⁴⁾، والمزاوجة بين اللهجة الريفية واللغة العربية، والنهل من المظلومية التاريخية للريف، ومن زعمائه التاريخيين، وفي المقدمة ابن عبد الكريم الخطابي، رحمه الله، واستلهم مقولاتهم لتأطير لحظات مفصلية مر بها الحراك⁽⁵⁵⁾. وهو في هذا يستوي مع الحراك الشعبي لسبيدي إيفني عام 2008 الذي كان يستلهم من تاريخ المقاومة الباعمرانية.

وقد انتبعت السلطات إلى هذه الخصيصة، فلجأت إلى توظيف الأسلوب نفسه من خلال تخصيص خطبة الجمعة ليوم 26 أيار/ مايو 2017 بمسجد محمد الخامس في الحسيمة لدحض أساس الحراك ودوافعه، وترويج صور شخصية للزفرافي يوم 29 أيار/ مايو بعد اعتقاله عقب الخطبة، لإقناع المتلقي بأنه غير متدين، واتهام الحراك بالتشيع والداعشية، وإذاعة بلاغ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عبر التلفزيون، وقد نص على أن الاحتجاج "إخلال بالتقدير والوقار الواجبين لبيوت الله [...] مما أفسد الجمعة وأساء إلى الجماعة"⁽⁵⁶⁾. وقد تمّت متابعة الزفرافي بتهمة "عرقلة حرية العبادة وتعطيلها أثناء صلاة الجمعة؛ حيث أقدم على منع الإمام من إكمال خطبته، وألقى داخل المسجد خطاباً تحريضياً أهان فيه الإمام، وأحدث اضطراباً أخل بهدوء العبادة، وفوّت بذلك على المصلين صلاة آخر جمعة من شهر شعبان"⁽⁵⁷⁾. وفي السياق نفسه، صرح وزير الأوقاف والشؤون

53 يمكن هنا أن يظهر الفرق الكبير بين الخطاب الذي ساد في حركة 20 فبراير وهذا الخطاب.

54 يمكن هنا رصد خطاب ناصر الزفرافي لفهم هذه الخصيصة؛ إذ كان دائم الاستشهاد بالآيات والأحاديث وسير الصحابة، وخصوصاً عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأهم مثال رسالته من السجن إلى الحراك يوم 5 تموز/ يوليو التي بدأها بالآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 23)، وأنهاها بالآيات ﴿وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ لَبَنٌ مِنِ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 155-157). وتكرّر وصفه للحراك بأنه "المبارك" و"المقدس"، وظل طوال شهر رمضان يخطب عبر تقنية البث المباشر بعد صلاة التراويح، وهو مرتدٍ قميصاً يترك الانطباع بأنه منتهٍ للتو من الصلاة. وقد تلقى الزفرافي توكيماً دينياً في معهد الإمام مالك للتعليم الأصيل، العتيق.

55 أهم مثال في هذا الباب الأداء الجماعي لقسم الريف الشبيه بقسم المجاهدين أمام الزعيم الخطابي: "أقسم بالله العظيم آل نخون، وآل نساوم، وآل نبيع قضيتنا ولو على حساب حياتنا. عاش الريف ولا عاش من خانه". وكذلك استلهم مقولة الخطابي في نعت الحكومة بالصباغة، حين خاطب الحكومة وقتئذٍ قائلاً: "هل أنتم حكومة أم عصابة".

56 "بلاغ حول ما شهده أحد مساجد الحسيمة"، موقع وزارة الأوقاف، 26 أيار/ مايو 2017، شوهد في 2018/2/21، في: <https://goo.gl/4eoEzP>

57 انظر: "الوكيل العام بالحسيمة يأمر باعتقال الزفرافي"، موقع فبراير.كوم، 2017/5/26، شوهد في 2018/2/21، في: <https://goo.gl/KpzCXe>

تشهد نفيراً عاماً لا يتخلف عنه إلا أصحاب الأعدار القاهرة، وتجلي هذا كذلك في التجاوب الشعبي الكبير مع إضراب استمر ثلاثة أيام في 2 و3 و4 حزيران/ يونيو 2017. ولعل المشاركة الشعبية الواسعة هي السبب المباشر الذي يجعل السلطات الأمنية تتردد في منع أفواج الملتحقين بالحسيمة في أكثر من مناسبة. والمثير في هذا الحراك هو قدرته على جذب المشاركة النسائية الواسعة في وسط محافظ جداً⁽⁵⁰⁾، وكذا شعبية قيادته التي تتكون من شباب بمؤهلات علمية محدودة⁽⁵¹⁾، وتنتمي إلى أوساط مهنية بسيطة⁽⁵²⁾. وهذه القدرة على الحشد والتعبئة جديرة بالدراسة. وقد حصن هذا الطابع الشعبي فعاليات الحراك من تأثير أي فاعل حزبي أو حكومي في وجهته وسقفه، وهذه نقطة افتقدتها احتجاجات كثيرة كانت محكومة بسقف السياسة والأحزاب وبحساباتهم. كما تجسّد الطابع الشعبي بقدر أكبر من خلال استمراره بالوهج نفسه، على الرغم من اعتقال الصف الأول من رموزه بعد حملة اعتقالات واسعة شملت العشرات.

4. الأساليب التواصلية للحراك

تفوّق حراك الريف في سياسته التواصلية، واستطاع جلب الاهتمام والمتابعة لفعالياته من خلال حسن استخدامه لوسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصاً تقنية البث المباشر، وإصدار عشرات الصفحات على فيسبوك، وقدرة ناشطيه على التقاط صور وفيديوهات موثقة لخروج السلطة وقمعها. وبذلك، فك العزلة عنه، وتجاوز تأثير الحصار الإعلامي الرسمي لاحتجاجاته. كما استطاع تحريك كثير من القنوات التلفزيونية، ووكالات الأنباء الأجنبية، وأشهر الصحف الدولية لتغطيته. وقد نجح قادة الحراك في تحقيق تواصل دائم مع الرأي العام، لتوضيح المستجدات، والرد على الشائعات، وتحديد الآفاق والخطوات، ونقل الوقفات نقلاً مباشراً. وكان كل ذلك يعطي كثيراً من الوقفات أثراً إشعاعياً أكبر من حجمها ميدانياً. وساهم حضور ناصر الزفرافي، أحد قادة الحراك البارزين، عبر الحوارات وتقنية البث المباشر في تحقيق إشعاع واسع للحراك، وتوضيح طبيعته، وشرح مطالبه، والإقناع بسلامته.

وقد انتبعت السلطات إلى القوة التواصلية لناشطي الحراك، فلجأت يوم 20 تموز/ يوليو 2017 إلى قطع الإنترنت عن مدينة الحسيمة.

50 برزت رموز نسائية قيادية في هذا الحراك، مثل: سلمية الزباني "سليما"، ونوال بنعيسى، وتم تنظيم مسيرة نسائية بامزور، وشهد أغلب الوقفات والمسيرات مشاركة نسائية في الصفوف الأولى، وشوهدت النساء من أعلى السطوح يشاركن المتظاهرين بالتوجيه والزغريد والشعارات والمساعدة.

51 المستوى التعليمي لغالبية قادة الحراك هو دون الجامعي.

52 لنحظ قلة الموظفين في الدولة، وانتفاء أغلب رموز الحراك إلى خانة الحرفيين الذين يمارسون أعمالاً حرة، وهو ما يؤكد انسداد الآفاق أمام أبناء المنطقة، وقلة فرص الشغل.

كما لوحظ التركيز على وجود قيادة تحظى برمزية وصلاحيات واسعة، فساعد ذلك على ضبط إيقاع الحراك ووجهته، ووسم قيادته بالانسجام، وهو ما افتقدته حركة 20 فبراير التي سادها تشتت قيادتها واختلافاتها الشاسعة، تصوراً وتقديراً، أيديولوجياً وسياسياً. ومن أهم ما ميز هذا الحراك، الدلالة الرمزية للتواريخ المحددة للاحتجاج؛ مثل مسيرة 20 تموز/ يوليو 2017 التي تتوافق مع ذكرى معركة أنوال، ومسيرة 26 حزيران/ يونيو 2017 التي تزامنت مع عيد الفطر، وكذا الدلالة الرمزية للشعارات والرايات والألبسة وكثير من الرموز.

ب- حراك غير حزبي

تبقى اللاحزبية السمة المميزة لحراك الريف من غيره؛ فقد تموقع الحراك منذ البداية ضد الأحزاب السياسية، واعتبرها "دكاكين سياسية"، وأعلن قادة الحراك في أرضيتهم المطالبة أنهم بعيدون "عن وصاية أي تصور لحزب أو حركة أو تنظيم سياسي أو جمعي"، وتزايدت حدة الهجوم على الأحزاب في مسيرة 18 أيار/ مايو 2017 بالحسيمة. في هذا اليوم، طالب الزفرافي وزيري العدل والداخلية باستدعاء سعد الدين العثماني، رئيس الحكومة، "بتهمة زعزعة استقرار البلاد"، لأنه "قام عام 2011، إبان الحملة الانتخابية لحزب الاعدالة واللاتنمية، بالدعوة إلى حكم ذاتي للريف"، ووصف الأحزاب بـ "الدكاكين السياسية المكونة للجوقة الحكومية"⁽⁶⁰⁾.

ج- حراك محلي بطابع وطني وبعد دولي

تميّز حراك الريف بطابعه المحلي من حيث المطالب التي تم فيها تفصيل معاناة المنطقة، وتنوع التعبير عنها بمختلف الطرق، ولذلك فهو حراك محلي من حيث مطالبه ورموزه وجغرافية فعله. ولكنه من حيث أثره وإشعاعه وتأثيره أصبح وطنياً ودولياً. ويتضح هذا من المسيرة الوطنية في الرباط يوم 11 حزيران/ يونيو 2017، ومن خلال عدد التنسيقيات التي أسست لدعم الحراك في مختلف مناطق المغرب، كالدار البيضاء، والرباط، ووجدة، وكذا من خلال لجان الدعم في الخارج، مثل إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وفرنسا. وساهم في هذا بالأساس مغاربة العالم ذوو الأصول الريفية، وغيرهم.

لقد كان جاذباً للانتباه هذا الإسناد الوطني والدولي لحراك الريف، على الرغم من طابعه المحلي، وهو أمر لم يُعهد في حركات سابقة⁽⁶¹⁾.

الإسلامية، أحمد التوفيق، لوكالة الأنباء الفرنسية بأن الزفرافي "أثار البلبلّة أثناء الصلاة، وأهان الخطيب"، مبرراً أن "ما قام به هو عمل غير مسبوق [...] وجريمة خطيرة"⁽⁵⁸⁾. والملاحظ هو صمت التنظيمات ذات المرجعية الإسلامية عن هذا السلوك، باستثناء جماعة العدل والإحسان التي أصدرت بياناً محلياً يوم 28 أيار/ مايو 2017، عبّرت فيه عن إدانتها "استغلال المساجد وتوظيف الخطباء في زرع الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، وفي تصفية الحسابات السياسية مع المواطنين المطالبين بحقوقهم الثابتة والمشروعة، وحدّرت من هذا السلوك المقبت المُحلّ بالأداب الشرعية المعلومة في وظائف المسجد الجامعة لأمر الأمة، والداعية للوحدة والرحمة، والبعيدة عن كل اصطفاة سياسي"⁽⁵⁹⁾.

6. الأشكال النضالية والتنظيمية للحراك: رمزية اختيار المناسبات

أ- أشكال نضالية وتنظيمية جديدة

تميّز حراك الريف بأشكاله النضالية والتنظيمية المتجددة، والمبدعة، والمفاجئة، والمتلازمة مع خصوصيات المنطقة وساكنتها، والقريبة من "العفوية المنظمة"، مع تجنب الصرامة في الأشكال، وعدم مركزة الوقفات مبدئياً مع استثناءات قليلة، وحسن اختيار المناسبات بدلالاتها الرمزية.

من الناحية التنظيمية، تم اعتماد أشكال قاعدية وغير ممركرة، تجلت في الجموع العامة المحلية المنظمة من تحت إلى أعلى، كما حدث في تسطير الملف المطلبي، وفي القدرة على إصدار بيانات جامعة، ومنها بيان 14 تموز/ يوليو الجامع لكل لجان الحراك في 17 منطقة من الريف تقريباً، وذلك على الرغم من الظروف الأمنية غير المساعدة، وتم تشتيت الوقفات على المناطق، لإنهاك السلطات الأمنية، وساعدت تضاريس المنطقة في تحقيق هذا الهدف، وتم توزيع المهمات بسلاسة بين رموز الحراك من دون تعقيدات، وبدا الحراك منظماً للغاية من خلال وحدة تقدير كل نقاطه جغرافياً، واتفاق كل رموزه على كل مراحل ومفاصله وخطواته وأفاقه.

ومن الناحية النضالية، تم اعتماد التجديد في الأشكال الاحتجاجية بحسب كل مرحلة، مثل المسيرات، والوقفات، و"الحلقيات"، والطنطنة بالقرع على الأواني المنزلية، وإطفاء الأضواء، وارتياح الشواطئ العمومية للاحتجاج، والفجائية لإرباك الأجهزة الأمنية من خلال تقنية "شن طن"، وهي تجنب التصريح بمكان الاحتجاجات حتى اللحظات الأخيرة من توقيته.

60 لمزيد من التفاصيل، انظر: طارق بنهدا، "نشطاء الريف يهاجمون 'الدكاكين السياسية' في 'مسيرة الحسيمة'", شبكة هسبريس، 2017/5/19، شوهده في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/Zf4yC8>

61 يمكن هنا ذكر بعض الاستثناءات القليلة، مثل القافلة الوطنية التضامنية مع حراك سيدي إفيني، جنوب المغرب، في حزيران/ يونيو 2008.

58 "من هو ناصر الزفرافي"، الجزيرة نت، شوهده في 2018/2/21، في: <https://goo.gl/cLG1lu>

59 انظر: "جماعة العدل والإحسان بالحسيمة تستنكر حملة القمع والاعتقالات"، موقع جماعة العدل والإحسان، 28 أيار/ مايو 2017، شوهده في 2018/2/26، في: <https://goo.gl/UL6yCn>

خاتمة

يستحق حراك الريف أكثر من دراسة، ويجب التوسع في استجلاء أبعاده وآثاره من خلال مقاربات معرفية متعددة وزوايا نظر مختلفة، لتحقيق التكاملية اللازمة للوصول إلى خلاصات دقيقة. ولمزيد من الاطلاع على كنهه، يجب اعتماد دراسات ميدانية ومقابلات مع المعنيين به طوال مراحلها.

وقد أظهر هذا الحراك أن الاحتجاجات موجات يكمل بعضها بعضاً، وأن الالتفاف على المطالب والمناورة إزاءها عمرهما قصير، ولذلك لم يصمد العرض السياسي لعام 2011 طويلاً. وكشف التباين الحاصل بين مطالب المجتمع واستجابة السلطة، وأعاد طرح غياب ثقة المواطن بالمؤسسات الرسمية والمسلسل الانتخابي بكل مخرجاته، وفنّد أطروحة عزوف الشباب عن السياسة ولامبالاتهم ويأسهم، وأظهر أن فئة الشباب تتفاعل مع الواقع السياسي من منطلقات مخالفة، وبوسائل مختلفة، تراها الأنجع والأفضل.

وكشف الحراك أيضاً، فشل المقاربة الأمنية لقمع حركات احتجاجية سلمية تدافع عن مطالب مشروعة. وأظهر أن الوعي الشعبي يتزايد بسرعة فائقة، ويجنح نحو السلمية وابتكار طرق تنظيم ذاتي، بعيداً عن الوسائط الرسمية.

لقد مثل الحراك لحظة أمل جديدة، ومناسبة أخرى لتكسير حاجز الخوف، واستقطاب شرائح اجتماعية جديدة للتفاعل مع الاحتجاجات. كما مثل مناسبة لتحقيق فرز جديد في المشهد السياسي، وتوضيح حقيقة الاصطفافات السياسية التي تحكم مكوناته.

ويبين حراك الريف أن الاحتجاجات ذات الأثر الشديد تنشأ في المناطق الهامشية المتضررة أكثر مما تنشأ في المدن الكبيرة والقرية من المركز، وكشف أن المطالب الاجتماعية والاقتصادية ذات الصبغة المحلية أقرب إلى تحقيق تعبئة وجذب للشعب من أجل المشاركة والتفاعل، وأظهر أن الاحتجاجات التي تحظى بتجاوب أكبر هي التي يقودها شباب قريب من الساكنة، بخطاب بسيط، وبوسائل متجددة وغير تقليدية.

وتبقى مخرجات هذا الحراك حاسمة في المراحل التي تليه؛ فالسلطة تراهن على الزمن حتى يدخل الحراك في رتابة وخفوت ينتهيان بموته من دون تحقيق أهدافه، وهو ما سيؤدي إلى إحباط شعبي في الريف وخارجه تستمر تداعياته مدة طويلة، وهناك من يراهن على التصعيد المتواصل والصمود لربح الوقت وإنهاك السلطة والأجهزة الأمنية، ورفع تكلفة المقاربة الأمنية، واعتماد أسلوب الاستنزاف، لا أسلوب الحسم. وهناك من يراهن على القمع المتواصل مهما كلف ذلك من ثمن، لتأديب مناطق أخرى بحراك الريف، ويساعده على هذه المقاربة سياق إقليمي داعم، ومساندة رسمية فرنسية، ولامبالاة دولية بما يجري من خروق.

يبقى حراك الريف مفتوحاً على كل الاحتمالات، لأن من شأن أي متغير، مهما بدا صغيراً وجزئياً، التأثير في مخرجاته.

بل مثل هذا الحراك حافزاً لتنسيقيات محلية في مناطق أخرى للخروج في احتجاجات، والبحث عن تسيير ملفات مطلبية خاصة بها⁽⁶²⁾.

د- المزاوجة بين الراديكالية والمرونة الإصلاحية

تميز الحراك بقدرته على التموّج بين "الراديكالية" و"الإصلاحية" بحسب مجريات الأحداث؛ ففي لحظات كثيرة، غلب المطالب ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية، وجنح نحو تجنّب تسييسها، ولكنه في لحظات أخرى رجّح المطالب ذات الصبغة السياسية. لقد اتضح هذا في تصريحات تقارن بين الاستعمار الإسباني والوضع الحالي، ووصف الاستعمار الإسباني بأنه أرحم، وفي التمسك بمغربية الصحراء، ونعت "البوليزاريو" بالمرتزقة، واستنكار تصريحات لأعضاء بعض لجان الدعم في أوروبا ودعوتهم لجعل المطالب الاجتماعية سقف الحراك، ورفض الاحتجاج يوم عيد العرش 30 تموز/ يوليو، وتحييد الملك من الصراع، والتمسك بمطلب الحوار مع من يبعثه الملك، والتغير التدريجي للموقف من الأحزاب والمؤسسات الوسيطة، وتجنب التصعيد بعد استثناء قادة الحراك من العفو الملكي في عيد العرش، وقبول وساطة أشخاص محسوبين على المخزن أحياناً.

هـ- القدرة على الاستمرارية

مما يُحسب لحراك الريف قدرته على الاستمرار على الرغم من الإكراهات المتمثلة في التعزيزات الأمنية، وإقامة الحواجز، ومنع المتظاهرين من الالتحاق بالحسيمة، والقمع المتواصل للوقفات، واعتقال العشرات، وحملات التشويه والتعتيم ضد الناشطين. ويرجع السبب إلى تجنّد الوسائل، وحسن التنظيم، وتجنّد الحراك شعبياً، وعدالة المطالب، وتضرر الساكنة كثيراً، وشعورهم بالثقة بالناشطين، وحسن استثمار أخطاء السلطة التي كانت بمنزلة هدايا للحراك في لحظات مفصلية، مثل: اتهام الحراك بالانفصال، والسماح بمسيرة 18 أيار/ مايو، وتسريب شريط الزفزاقي عارياً، ومعاناة المعتقلة سيليا في السجن، وتصويرها عارية كما صرّحت بذلك، وتصوير قوات الأمن وهي تكسر البيوت، والإفراط في استعمال العنف يوم عيد الفطر، وبث صور عن أحداث الشغب في مباراة لكرة القدم على أنها صور لعنف ناشطي الحراك ضد قوات الأمن، ومسارة الحكومة بإعلان فرص توظيف خاصة بالمنطقة، تشمل 26 ألف منصب.

62 الملاحظ هو تشكل تنسيقيات في مدن متعددة، حاولت المزاوجة في أرضية تأسيسها بين الدعم والتضامن مع حراك الريف، وكذا الدفاع عن مطالب ساكنة المدينة. وقد ساهم في هذا تصريحات قادة حراك الريف بأن أفضل دعم للحراك هو إثارة مطالب المدن الأخرى والدفاع عنها، مثل ما يحدث في الريف.